تعليقات وملاحظات

تعليق على بحث
المستعمرات الالمانية في فلسطين

للدكتور عبد اللطيف الطيباوي

مقالة الدكتور علي محافظة عن هذا الموضوع في العدد المزدوج (السنة الثالثة) ص ٤٦ ، وما يليها ، تستحق الدرس وهو يستحق الثناء لكتابتها ، فهي تكاد تكون الوحيدة التي تناولت الموضوع في اللغة العربية . وقد راجعتها على ضوء ما كتبتُه عن تلك المستعمرات في مؤلفاتي باللغة الانكليزية ، ووضعتُ في اثناء المراجعة ملاحظات على هوامش الصفحات ، اذكر بعضها فيما يلي :

جاء في الفقرة الاولى من المقالة ان من اغراض كاتبها معالجة « الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء انشاء هذه المستعمرات » . فاستوقفني ذلك لعلمي ان انشاءها كان دافعه دينياً محضاً ، ولم يَزُلْ استغرابي إلاّ بعد اكمال قراءة المقالة ، فلم اجد فيها بحثاً لدوافع سياسية او اقتصادية .

وكذلك استغربت مقدمة في نحو اربع صفحات ، مستمدة من مصادر ثانوية ، تشير الى بعض المشاريع لإعادة اليهود الى فلسطين ، إذْ لم ار لهذا من صلة مباشرة مع رغبة طائفة نصرانية المانية في الهجرة الى فلسطين انتظاراً لعودة السيد المسيح . ولكني حقّقتُ ما ذكره الكاتب عن تأسيس القنصلية البريطانية في القدس سنة ١٨٣٨ ، وخاصة قوله ان وزارة الخارجية امرت القنصل « ببسط حمايته على كافة

اليهود المقيمين في فلسطين » . وسبب التحقيق ان الكاتب نسب ذلك إليّ اعتمادا على الصفحة ٣٣ من كتابي باللغة الانكليزية « المصالح البريطانية في فلسطين : ١٨٠٠ — ١٩٠١ » (١) . ولكن نص الأمر الذي اثبته بحروفه لا ينطبق على ما نسبه الكاتب إليّ ، فلا ذكر في النص لقوله : « كافة اليهود المقيمين في فلسطين » . اما قوله « بسط حمايته » فهو اقوى بكثير من الأصل الانكليزي الذي معناه « تسهيل الحصول على الحماية » "to afford protection"

اما مقدمة المقالة التي لها في رايي صلة مباشرة بموضوعها فتبدا بعد ذلك ، عند ذكر اقتراح فَوْن مُولتكي في سنة ١٨٤١ إقامة دولة نصرانية في فلسطين تحت رئاسة امير ألماني . ومرة اخرى نسب الكاتب إليّ ما لم أقله على الصفحتين ٤٤ — ٤٥ من كتابي المذكور . فلم اقل ان فريدريك وليم الرابع ملك بروسيا وافق او لم يوافق على اقتراح مُولتكي . والذي قلته ان الملك اراد ، لأسباب دينية محضة ، انشاء أسقفية بروسية — بريطانية في القدس . وقد امكن اكتشاف هذين المتنين على طريقة الكاتب في النقل لسهولة مقابلة المنقول مع الأصل في مكتبتي . لكنه لا يصح الاستنتاج ان ذلك ينطبق على المصادر الأخرى التي لا تسهل مقابلة ما نقله الكاتب عنها مع اصله . وكل ما يصح استنتاجه ان المقابلة مفيدة .

معظم مادة المقالة مأخوذ عن : ١ — كتاب بالالمانية عنوانه « تاريخ المستعمرات الالمانية في فلسطين » لمؤلفه هانس بُروغَر ، جاء ذكره في الهوامش اكثر من عشرين مرة . وعن ٢ — كتاب آخر بالالمانية عنوانه « تاريخ حيفا في العهد العثماني » ، ومقالتين بالانكليزية عن

(1) British Interests in Palestine : 1800 - 1901 (Oxford, 1961), P. 33 ; 44 - 45

المستعمرات الألمانيـــة ، لمؤلف اسرائيلي اسمه ألكس كارمل ، جاء ذكر مؤلفاته في الهوامش ايضا اكثر من عشرين مرة . وهناك مصدر ثالث وهـــو السجلات الألمانيـــة الرسمية التي جاء ذكرها في الهوامش نحـــو عشر مرات . ولكن المأخـــوذ عنها قليل في كميته واهميتـــه .

ولعـــل اعتماد كاتب المقالة اعتماداً كبيراً على كارمل ، ونقلـــه عن مؤلّفَيْنِ اسرائيليين آخَرَيْن ، دون نَقْـــدٍ لمـــا نُقِل ، جعل الصورة النهائية للمستعمرات الالمانيـــة غير كاملة ؛ واذكر مثلا واحداً على ذلك : وهـــو خُلُـــوّ المقالة من ذكر فضل المستعمرين الألمـــان على المستعمرين اليهود في الزراعة . فقـــد حاول بعض اليهود إقامة اول مستعمرة في بِتَاحْ تِقْفَا فأخفقوا ، ثـــم حاولوا ذلك بعد بضع سنوات فنجحوا ، فكـــان بعض الفضل في نجاحهم عائداً الى الألمـــان الذين علّموا اليهود كيفية ري الأرض في مساء نهر العوجا بواسطة المضخّات . وهـــذا وغيره مذكور في كتابي باللغـــة الانكليزية « العلاقات البريطانية ـــ العربية ومسألة فلسطين : ١٩١٤ ـــ ١٩٢١ » (٢) .

بعـــد هذا لا بُـــدّ من سؤالين بشأن هوامش المقالة : الاول يتعلق بالهامش رقـــم (٩) الذي ورد فيه لأول مرة ذكر كتاب بالالمانيـــة عنوانه « تاريخ الكنيسة الانجيلية وبعثاتها التبشيرية في فلسطين » . ومع ان هذا الكتاب يَـــرِد ذكره مراراً بعد ذلك في الهوامش ، فانه لا ذكر لمؤلفـــه (أو محرره او ناشره) او مكان طبعه او سنـــة الطبع . والسؤال الثاني هو عن مصير الهوامش ٣٠ ـــ ٣٩ ، فأرقامها موجودة في نص المقالـــة ، ولكن الهوامش العشرة نفسها ضائعة . فيا خسارة التاريخ .

---

(٢) Anglo-Arab Relations and the Question of Palestine : 1914 - 1921 (Luzac, London, 1977), PP. 16 - 17 ; 26 - 27

بدأ المقالة بذكر « جمعية الهيكل » الالمانية التي اعتقد افرادها بقرب عودة السيد المسيح ، فأرادوا الهجرة الى فلسطين واتخاذها وطنا لهم انتظاراً لتلك العودة . ولبث الكاتب ربط هذه الحركة الالمانية بنظائرها في العالم البروتستانتي ، وخاصة في انكلترا وأمريكا . فقد سبقت طائفة امريكية غيرها من الطوائف التي اعتقدت بقرب عودة السيد المسيح ، فهاجرت الى فلسطين واقامت في ضاحيه من ضواحي يافا عُرفت عند العرب منذ ذلك الوقت « بالمَلَكَان » تحريفاً عن « الأمريكان » . ولكن الأمريكان لم يَثْبُتُوا ، واضطروا لأسباب مختلفة الى بيع بيوتهم الخشبية التي جلبوها معهم الى الألمان الذين استقرُّوا في سنة ١٨٦٨ في اول مستعمرة لهم عند اسفل سفح جبل الكرمل في حيفا . فصارت المَلَكَان ثاني مستعمرة المانية بعد حيفا .

واسهب كاتب المقالة في بحث الاختلافات الدينية بين « جمعية الهيكل » والكنيسة الألمانية ، كما اسهب في بحث الاختلافات بين زعيمي الجمعية ، حتى انه لخّص في عدد من الصفحات محتويات كتبهما ، وترجم لكل منهما ترجمة طويلة فبلغ مجموع الترجمتين بحروف صغيرة ثلاثة وعشرين سطراً . ورأيي انّ الاسهاب في كل ذلك غير ضروري للبحث الأساسي ، ونشأ عنه شيء من قلّة التوازن في المقالة ، فما جاء فيها عن المستعمرات قليل بالنسبة الى ما جاء عن المواضيع الجانبية والاستطرادات الكثيرة . فاذا استثنينا ذلك واقتصرنا على المادة الأساسية ، فهذه بعض الملاحظات عليها :

١ ــ ص ٦٢ : يقول الكاتب ان مستعمرة « سارونا » أُسست سنة ١٨٧١ « على طريق يافا ــ تل ابيب » . وهذا لا يصح تاريخياً ، لأنّ تل ابيب لم يكن لها وجود قبل سنة ١٩٠٩ .

٢ ــ ص ٦٤ : ويقول الكاتب إنّ مستعمرة « وَلْهَلاَ » أسست سنة ١٨٩٢ « على طريق يافا ــ تل ابيب » وهذا مثلٌ سابقه لا يصح تاريخياً .

٣ ــ ص ٦٤ : يقول الكاتب ان مستعمرة « وِلْهِلْمَا » تقع الى الشمال الشرقي من اللّد . والناظر الى الخارطة يرى انها واقعة الى الشمال من اللّد . ولا يقول الكاتب إن هذه المستعمرة أسست تخليداً لزيارة الامبراطور الألماني غليوم الثاني لفلسطين في سنة ١٨٩٨ . والكاتب يذكر هذا الامبراطور وكذلك الملك فردرك وليم وغيرهما بأسمائهم الالمانية . وهذا مشوّش للقارىء العربي الذي لا يعرف اللغة الالمانية . فالامبراطور معروف عند العرب في كتبهم ومدارسهم باسم « غليوم الثاني » ، كما هو معروف عند الانكليز بالامبراطور او القيصر وليم الثاني . ولا يقولون عنه وِلْهِلْم ابداً .

٤ ــ ص ٨٣ : والكاتب مخطىء بقوله إنّ الامبراطور غليوم الثاني زار فلسطين على ظهر باخرة من البوارج الألمانية . فالحقيقة انه جاء مع الامبراطورة وحاشيتهما على ظهر اليَخْت الامبراطوري « هُوهِنْزُولِرْن » تحرسهم البوارج الألمانية والعثمانية . وتفصيل ذلك موجود في كتابي باللغة الانكليزية بعنوان « تاريخ سورية الحديث مشتملا على لبنان وفلسطين » . وفي هذا الكتاب ان الامبراطور وَكَل الى شركة كوك البريطانية تدبير جميع ما احتاجته الرحلة برّاً من حينا الى يافا فالرملة فالقدس ، من خِيَم وأسِرّة واثاث ومطابخ وخدم . وكان الغرض الأول من زيارة الامبراطور تدشين الكنيسة الالمانية الجميلة التي بنيت بقرب كنيسة القيامة ، ولكنه زار الأماكن المقدسة قبل مغادرة

المدينة مع الامبراطورة والحاشية بقطار خاص الى يافا حيث كان اليخت الامبراطوري في الانتظار (٣) .

٥ — ص ٨٥ : لم يذكر الكاتب انّ الامبراطورة أوْغُسْتَه فِكتوريا كانت مع زوجها الامبراطور غليوم ، ولكنه ذكر البناء العليم الذي أقيم فيما بعد في القدس تخليداً لاسم الامبراطوره . واهل القدس يعرفون هذا البناء المشهور على جبل الزيتون ، فهو يُشْبِه قلعة من قلاع منطقة نهر الرّاين . وقد تم بناؤه قبيل الحرب العالمية الاولى ، وصار داراً للحكومة في أول عهد الانتداب البريطاني ، ووضع الكاتب اسم هذا البناء كاملا باللغة الالمانية ، ولكنه اخطأ في تهجئة الاسم الثاني للامبراطورة ، فهذا يُكْتَب بحرف "K" لا بحرف "C" كما هو في الانكليزية .

وهناك اغلاط في الألمانية والفرنسية والانكليزية في نص المقالة وفي ترجمتها ، بعضها مطبعي وبعضها غير ذلك كما يتضح من الامثلة الآتية :

١ — ص ٥١ : في نص المقالة هاتان الكلمتان (Hof prediger) وترجمها الكاتب « بقسيس البلاط » . ولكنهما في الألمانية كلمة واحدة وتكتبان معاً كلمة واحدة .

٢ — ص ٦٢ : ذكر الكاتب ان سعر الهكتار الواحد من ارض مستعمرة « ساروونا » كان « مئة غولد Guld » . والصحيح ان تكون غولدين : Gulden

(3) A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine (Macmillan, London, 1969), PP. 188 - 194

٣ ــ ص ٦٨ : في نص المقالــة هاتان الكلمتان تبــدأ كل منهما بحــرف كبــير (Kolonisations Kasse) وترجمهما الكاتب « بصندوق الاستعمار » . ولكنهما في الالمانيــة كلمة واحدة وتكتبان معــاً كلمــة واحــدة .

٤ ــ ص ٧١ : ذكــر الكاتب في النص « الحزب الوطني الحــر » وكتب اسمه بالالمانيــة هكذا : (Der Nationalliberden Partei) وأداة التعريف هنا خطــأ والواجب ان تكــون Die . لــما الكلمة الاولى بعدها فــلا معنى لها بهذه الهيئة ، والغالــب ان الكاتب أراد ان يكتــب : Nationalliberate

٥ ــ ص ٧٨ : ترجــم الكاتب اللقب الألماني "Graf" بكلمــة « امــير » . وهذا لا يصح ، فأمير معناها بالالمانيــة Prinz فاذا كان لا بــد من الترجمة فكلمة نبيل تربية من الأصل الألمانــي . لكن ما المانــع من كتابة « غراف فلان » كما نكتب « لورد فلان » ؟

٦ ــ ص ٨٠ : جــاء في نص المقالــة هاتان الكلمتان الفرنسيتان (وا منهما تبــدأ بحرف كبير) : Penetration Pacifique وترجمهمــا الكاتب « بالغزو الاقتصادي » وهذا خطأ ، فمعناهــا « التغلغل الهادىء أو السلمي » . وكــان الواجب ان نكتب الكلمة الاولى هكــذا : penétration ولا حاجة لحرف كبير في أول كل من الكلمتــين .

وفي الختام لا بــد من ملاحظة بشأن استعمال كلمة « الاستعمار » مقابل (colonisation) ، وكلمــة « المستعمرين » مقابــل (colonists) ، وكلمــة مستعمرة مقابــل (Colony)

فقد اعتاد العرب في فلسطين منذ اكثر من نصف قرن استعمال هذه الاصطلاحات عند ذكر الألمان او اليهود . ولا سبب لتغيير هذا الاصطلاح المألوف ، واصطناع ما اوحته الدعاية الاسرائيلية لمن يكتبون بالعربية تحت ارشادها داخل اسرائيل ، فهؤلاء هم الذين ادخلوا كلمات « الاستيطان » و « المستوطنين » و « المستوطنة » . ولا يخفى ما بين المألوف والدخيل من فرق في المعنى والمغزى . وقد استعمل كاتب المقالة المألوف من هذه الاصطلاحات اكثر من استعماله الدخيل ، ولا شك أن استعماله الدخيل كان دون وعي ، شأنه في ذلك شأن كثير من كتاب العرب المحدثين .